2- سيكولوجية الجماهير

الدكتور: محمد عبد الأمير جابر
أخصائي في الأمراض النفسية العصبية والعقلية
وأستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم علم النفس

Drmohamadjaber5@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/11/30 **تاريخ القبول: 2021/12/14**

تحتل الجماهير في التاريخ البشري موقعاً أساسياً لجهة الأدوار التي لعبتها ولا تزال على مسرح التغيرات السياسية والاجتماعية. وهي أدوار قد تتسم بالسلبية عبر الدعم الذي أعطته لقوى استبدادية أو لإيديولوجيات شمولية Totalitaire وأوصلتها إلى الحكم، أو عبر التضحيات في سبيل قضايا اجتماعية ووطنية، مما يجعلها تجمع بين القدرة على التدمير والقدرة على التضحية في آن واحد.

لقد استطاع المستبدّون في التاريخ البشري، كما الثوريون، أن يفرضوا سيطرتهم على الحركة الجماهيرية لأنهم عرفوا كيف يتوجهون إلى نفسية الجماهير وكيف يخاطبون فيها نفسيتها.

لقد أثبتت معاينة الحركات الجماهيرية وقائع عدة وهي أن الجمهور يمتلك وحدة ذهنية، ويتحرك بشكل لا واعٍ.

ا- يلخص «**لوبون**»[1] **Le Bon** نظريته حول الجمهور بجملة وسائل تتناوله بصفته ظاهرة اجتماعية، تفسر عملية التحريض التي يخضع لها بأنها عملية انحلال الأفراد في الجمهور والذوبان الكلي فيه.

ويرى «لوبون» أن للجماهير خصائص تميزها عن الأفراد، من هذه الخصائص:

ذوبان الشخصية الواعية للأفراد وتوجيه المشاعر والأفكار في اتجاه واحد. الجمهور النفسي أياً تكن توعية الأفراد وتوجيه الذي يشكلونه، فإن مجرد تحولهم جمهوراً يزودهم نوعاً من الروح الجماعية تجعلهم يحسون ويتحركون بطريقة مختلفة عن الطريقة التي سيحس بها ويفكر كل فرد منهم لو كان معزولاً. في حالة الجمهور تتلاشى الشخصية الواعية للفرد وتصبح شخصيته اللاواعية. في حالة من الهياج، ويخضع الجميع لقوة

(1) غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير - ترجمة هاشم صالح، بيروت 1991، دار الساقي.

التحريض وتصييبهم عدوى انفلات العواطف، بحيث تلغى شخصية الفرد المستقل ويصبح عبارة عن إنسان آلي ابتعدت إرادته عن القدرة على قيادته.

- **سرعة انفعال الجماهير**، فالجمهور يقوده، يقوده اللاوعي، فهو خاضع للتحريضات التي يتلقاها، والجمهور لا يعبأ بأي عقبة تقف بين رغبته وتحقيق هذه الرغبة. والجمهور سريع التأثر وقابل لتصديق كل شيء، ولا سيما ما يتعلق بالعاطفة والوجدان والعقائد الإيمانية الموروثة.

إنه الجمهور النفسي، الذي يتكون من عظام الناس كما من أدنيائهم، إنما يشتغل وفق نمط جمعي لا شعوري، يفقد فيه البشر فرادتهم الذاتية وتذوب في الروح الجماعية. كما يمتلئ الجمهور بنوع من المشاعر الخاصة بكائنات لا تستطيع الاحتكام إلى العقل أو القادرة على اتباع روح نقدية. كما أن العواطف التي يعبر عنها الجمهور تحوي تناقضاً لجهة التضخيم والمبالغة أو لجهة التبسيط والاختزال، حيث يتحرر الجمهور من الإحساس بدونيتهم، ويصبحون مجيشين بقوة عنيفة وعابرة، ولكن هائلة. بمعنى ما يخسره الجمهور النفسي من حيث الحس النقدي يربحه في الغالب من حيث الشعور بالقوة.

فعن طريق الجماعة يكتسب الفرد المنتمي إليها شعوراً عارفاً بالقوة والجبروت، مما يجعله ينصاع بسهولة لبعض النزوات التي قد تدفع أحياناً به، مع سائر أقرانه، نحو أعمال عنيفة وحشية. وهذا العنف الجماعي يجد تفسيره في كون الجمهور «قطيعاً» وبالتالي غير مسؤول.

- **تتميز الجماهير أيضاً، بالتعصب والاستبدادية والنزعة المحافظة**، وهو أمر ناجم عن كونها لا تعرف سوى العواطف المتطرفة، مما يجعلها تتقبل الأفكار والعقائد أو ترفضها دفعة واحدة. لكن هذا الجمهور القادر على القتل والتدمير في ظروف معينة، هو نفسه الجمهور القادر على القيام بأفعال تتسم بالتضحية والبطولة في سبيل قضايا اجتماعية ووطنية محقة، فتعاطف الجماهير مع حدث ما قد يتحول نوعاً من التقديس، كما أن النفور من شيء قد يتحول حقداً.

فسرعة تأثير الجماهير وتصديقها لأي شيء عن طريق التحريض أو العدوى النفسية وقابليتها لإحياء وتفعيل الغرائز الأكثر بدائية، فضلاً عن انتهازية أغلب المحرضين والزعماء ودهائهم السياسي، كل ذلك يجعل من الجماهير قوة غاشمة قابلة في كل لحظة للانقلاب من الرقابة الأخلاقية ومن قيد العقل، ولا سيما إذا كان «الزعيم» الذي

يحرّضها، وتسلّم له بالمصداقية – بلا مساءلة أو نقد – مخادعاً، دجالاً.

- **إن مؤسسي العقائد الدينية أو السياسية** كانوا مدركين أهمية فرض عواطف التعصب الديني على الجماهير وسيلة إيمانية تدفع بمعتنقيها إلى التضحية في سبيلها. من هنا تبدو إحدى السمات العامة للعقائد، الدينية منها وغير الدينية، أنّ شرط ترسخها في معتنقيها مرهون باكتسابها حلة دينية ذات توجه إيماني مطلق بما يمنع عنها المناقشة في مدى صحتها.

سواء في الحركات الدينية التي شهدها التاريخ، أو في الحركات والانتفاضات السياسية التي شهدتها الأزمة الحديثة، فإن العاطفة المحركة للجماهير التي آمنت بها كانت دوماً من طبيعة دينية. ذاك أن الزعيم يعتبر شخصية خارقة ومستقطباً للعاطفة الدينية الجماعية على شكل خوف من القوة التي تُعزى إليه، وخضوع تام لأوامره. إن عاطفة الجماهير، سواء أُسقطت على زعيم أو بطل مؤله، أو على «وثن» معبود، أو على إيديولوجيا سياسية مؤمثلة، تبقى دائماً ذات جوهر ديني. هذا الجوهر الديني الثابت في كل عاطفة جماهيرية هو ما يفسر تعصب الجماهير واستبداديتها، واعتناقها للأفكار والعقائد على أنها حقائق مطلقة، ودفعها ما سواها من الأفكار والعقائد بأنها أخطاء مطلقة.

1 – سلوك الحشد:

الجماهير تحترم القوة، ونادراً ما تتأثر بالطيبة التي تعتبرها في أغلب الأحوال شكلاً من أشكال الضعف. ما يتطلبه الجمهور من أبطاله هو القوة، بل العنف. فهو لا شعورياً، يريد أن يسيطر عليه سيده، ويطلب أن يخشاه ويهابه. وفي الواقع، إن الجماهير تكنّ احتراماً ضمنياً للتقاليد، وتكنّ نفوراً لا شعورياً تجاه كل جديد قد يغير شروط وجودها.

أما أخلاقية الجماهير فإن جميع المكفوفات الفردية تتلاشى لدى الأفراد حين يجمعهم جامع مع الجمهور، بينما تستيقظ بالمقابل الغرائز الوحشية، الهمجية، المدمرة، المتخلفة عن الأزمنة البدائية، الراقدة في أعماق كل فرد، وتصير تبحث عن تلبية وإشباع. «يعيش إنسان عصور ما قبل التاريخ داخل لا وعينا دون أي تغيير»[1]. "فالمراحل البدائية يمكن دائماً أن تستعاد، والذهب البدائي غير قابل للزوال»[2].

لكن الجماهير قابلة أيضاً، تحت تأثير الإيحاء suggestion للرضوخ والخضوع والتفاني في سبيل «مثل أعلى».

(1)Freud: considerations actuelles sur la guerre et sur la mort – in: Essais de Psyclanalyse – éd- Payot, Paris 1981, P. 35.

(2)Jbid: P. 22.

إن الأفكار الأكثر تعارضاً وتنافياً يمكن أن تتعايش لدى الجماهير، من دون أن يشوب تناقضها المنطقي نزاع. والجمهور، فضلاً عن ذلك، عظيم التأثر بالقوة السحرية للكلمات، القادرة تارة على إثارة أعنف العواطف في النفس الجماعية، وطوراً على تهدئتها[1]. إن العقل والحجج المنطقية لا تستطيع مجابهة بعض الكلمات وبعض الصيغ.

لا تعرف الجماهير الظمأ إلى الحقيقة، فهي تطلب أوهاماً illusion، وهي تقدم على الدوام اللاواقعي على الواقعي. واللاواقعي يؤثر فيها بنفس قوة تأثير الواقعي.

إن يكن الجمهور بحاجة إلى زعيم، فمن الضروري أن يتمتع الزعيم بإيمان عميق بعقيدة ما أو بفكرة ما حتى يفجر الإيمان والحماس الكامنين لدى الجمهور. وهو ينجح في ذلك بالقدر الذي يتمكن فيه من التماهي مع هذه الجماهير والتعبير عن حاجاتها الحقيقية.

من هنا تكتسب الأفكار التي يبدو أنها صادرة عن الزعيم تأثير السحر الذي لا يقاوم. والواقع أن هذا السحر نابع من الإعجاب بقدرته على تجسيد أفكار وآمال الجماهير بقوة لا تلين وإيمان لا يتزعزع.

اهتمّ علماء النفس بسلوك البشر حين يتجمعون في أعداد كبيرة حيث اتضح اختلاف سلوكهم في هذه الحالة عند سلوكهم في حالاتهم الفردية، وكأن الحشد foule، والتجمع يأخذ أبعاداً نفسية تتجاوز مجموع اتجاهات وآراء الأشخاص منفردين، وكأن تغيراً نوعياً يطرأ يساعد على خروج أفكار ومشاعر لم تكن متاحة لوعي الفرد في حالته الفردية أو في التجمعات الغفيرة. وهذه هي خطورة سلوك الحشد، وهذا هو السبب وراء حرص السلطة على تجنب المواقف الحاشدة للجماهير خاصة حين تكون غاضبة أو تكون مقموعة عن التعبير لفترات طويلة، حيث تصبح إمكانات الانفجار المدمر أكثر احتمالاً.

إن الجماهير في حالة احتشادها وانفعالها واندفاعها تكون بعيدة عن التفكير العقلاني، وإن روح الجماهير تخضع لتحريضات وإيعازات أحد القادة أو المحركين الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها. وفي مثل هذه الحالة من الانفعال فإن كل شخص منوط في الجمهور يبتدئ بتنفيذ الأعمال الاستثنائية التي ما كان مستعداً لتنفيذها لو كان في حالته الفردية الواعية. فالزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات الجذابة يستملك روح الجماهير.

ويمكن تفسير سلوك الحشد على أنه خروج المشاعر المكبوتة بعد إزالة عوامل الكبت والقمع مع الإحساس بالأمان في وسط المجموع مع أصوات الشعارات الجماعية وبتيسير من قائد يعرف ما يحتمل بطبقات الوعي الأعمق للجماهير فيناديها ويحركها. أي أن القائد

(1)Freud: Psychologie des loules et analyse du moi – in: Essais de Psychanalyse – Op.Cit. P. 136.

الجماهيري هنا يفجّر المشاعر المكبوتة لدى الجماهير ويوجهها إلى حيث يريد بموافقة الجماهير. فالجمهور النفسي هو كيان نفسي اجتماعي مؤقت يقوم بدور مطلوب من قبل هذا الكيان.

في حالة الذوبان هذه يحدث تلاشي الشخصية الواعية، وهيمنة الشخصية اللاواعية، وتوجه الجميع بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، وتحويل الأفكار المحرض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة.

ولذلك فإن الجمهور دائماً أدنى مرتبة من الإنسان الفرد، فيما يخص الناحية العقلية الفكرية، ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ، وهذا يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها.

"إنّ الفرد في الحشد يجد نفسه في شروط تتيح له أن يفكك أسر ميوله اللاواعية المقموعة. والصفات الجديدة تتيح له أن يفكك أسر ميوله اللاواعية المقموعة. والصفات الجديدة في الظاهر، التي يبتدي بها عندئذٍ ما هي في الواقع سوى تظاهرات للأنا اللاواعي الذي تختزن فيه بذور كل ما هو شرير في النفس البشرية[1].

في وسط الحشد يشعر الفرد بالأمان لأنه الآن جزء من كيان ضخم يصعب عقابه أو مساءلته، ويتمركز الشخص حول هذا الكيان، ويتماهى مع الجموع الهائجة، وتصبح العواطف الملتهبة هنا هي السائدة فتحرك الجموع بمشاعر الحرمان أو الرغبة أو الظلم أو الإحباط. وسلوك الحشد من الناحية النفسية أشبه ما يكون بالهستيريا الجماعية، حيث يظهرون حماساً معيناً بشكل مؤثر فينتقل هذا الحماس بما يشبه العدوان إلى الأفراد المحيطين بهم، وكل هذا يحدث بشكل لا واعٍ، ولكي يحدث هذا لا بد من وجود أرضية مشتركة تدعم انتقال هذا الحمال، كأن يكون تحمساً لفكرة أو استجابة لشائعة تجد لها في اللاوعي مقابلاً يدعمها. كل هذا يوفر أرضية مشتركة للتحرك الجماعي اللاواعي والذي يفجر طاقات طال كبتها في اللاوعي الفردي والجماعي على السواء.

"الجماهير سريعة المبادرة إلى التطرف. فلا يكاد الشك يرتسم عندها حتى يتحول إلى يقين لا يقبل نقاشاً. ولا يساورها شعور أول بالنفور حتى يتحول الحال إلى كراهية ضارية»[2].

---

(1)Freud: Psychologie des foules et analyse du moi – in: Wssais de psychanalyse – éd. Payot – Paris 1981, P. 129.

(٢) Jbid: P. 134.

2 – تزييف الوعي:

تعرف السلطة كل هذه الحقائق عن نفسية الحشد وطبيعة الجماهير أثناء التجمعات أو المظاهرات، لذلك تحاول قدر الإمكان دون تكون هذا الكيان الخطر. وإذا حدث وتكون فإنها تستخدم أساليب مختلفة لصدّع أو أنها تحاول تملق هذه الجماهير بإظهار احترامها وتقديرها. في الوقت الذي تنتظر فيه السلطة إلى الجماهير بأنها لا عقلانية.

ولكي تتمكن السلطة من قيادة الجماهير دون مواجهات فإنها تقوم بتشكيل وعي الجماهير بما يتفق مع مصالح السلطة. وقد تتمادى السلطة في تشكيل الوعي الجماهيري حتى تصل إلى تزييف ذلك الوعي – خاصة حين تكون أهداف السلطة غير أخلاقية – لذلك تختار قوى السلطة وسائل الإعلام الموجه للإلحاح على حواس الجمهور من خلال التلفزيون والإذاعة والصحيفة لا قناعة بما تراه السلطة. إن تضليل عقول الجماهير هو «أداة للقهر» إنه يمثل إحدى الأدوات التي تسعى النهبة من خلالها إلى «تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة»... فالحكان لا يلجؤون إلى التضليل الإعلامي إلاّ «عندما يبدأ الشعب في الظهور كإرادة اجتماعية في مسار العملية التاريخية»[1].

فالتضليل الإعلامي، بوصفه أداة للهيمنة، يسمح بالظهر الخارجي للانخراط النشط بينما يحول دون الكثير من الفوائد المادية وكل الفوائد السيكولوجية للمشاركة الأصلية. وحيث يكون التضليل الإعلامي هو الأداة الأساسية للهيمنة الاجتماعية تكون الأولوية لتنسيق وتنقيح الوسائل التقنية للتضليل على الأنشطة الثقافية الأخرى.

ويشكل الإعلام المرئي الثقافة الجديدة، حيث تحولت البشرية إلى ثقافة الصورة. لقد أصبح التلفزيون منظم حياة الناس وتفاعلاتهم، حيث إنه إحدى أبرز وسائل تحول الكون إلى قرية صغيرة. ولم يعد الإعلام ينقل الأحدث ويروي الوقائع الحية مباشرة، بل أصبح يصنعها.

لا شك أن الإعلام الفضائي يخلق حالة كونية من التقارب الإنساني، وتوسيع الآفاق والمشاركة العالمية في قضايا المسار والمصير على اختلافها. كما أنه يفتح سبل التثقيف والتعلم من الآخرين، من خلال البرامج الوثائقية.

أما سلبياته فتتركز على التسلية والترفيه، من خلال الإثارة الحسية – كالبرامج التي تبث الصخب على مدار الساعة، وبرامج «قراءة الأبراج»، و«العب واربح»، ومختلف ألوان «الطرب الرخيص».

(1) هربرت أ. شيلر: المتلاعبون بالعقول – ترجمة عبد السلام رضوان – «عالم المعرفة» – رقم: 106 – المجلس الوطني – الكويتي 1986 – ص 6-5.

المشكلة هنا لا تكمن في برامج الترويج والترفيه، بل في تصوير الدنيا والحياة على أنها مجرد لهو وفرح، وأن الحظ والمكانة تتجدد كلها في «الأبراج» و«التنبؤات» المستقبلية. تكمن المشكلة هنا، في سياسة «الإلهاء» و«تحذير الوعي»، وامتصاص الإحباطات، من خلال الهروب في المتع الحسية التي توفرها القنوات التجارية. أي أن المشكلة تبرز حين تقدم هذه الثقافة للشباب على أنها نمط الوجود المفضل، الذي يقولب القيم والسلوكيات، على حساب البناء وتطوير الحياة العامة، ثقافياً وسياسياً، والالتزام بقضايا الوطن والمصير[1].

إذن هناك توجيه لثقافة الصورة لخدمة الإيديولوجيا المسيطرة، من خلال مجمل الأنشطة التي تهدف إلى قولبة وتنميط الجمهور عموماً، والناشئة خصوصاً، باعتبار أن هذه القولبة ترمي إلى بناء رؤية عن الذات والكون وما يتبعها من قيم وأنماط وجود.

والأخطر من ذلك هو الإثارة من خلال الصور المرئية المشحونة بمحتوى عنفي حقيقي (أحداث القتل والانفجارات والدمار...)، هذا الفيض من الإثارة من خلال العنف الحيّ والفعلي في بثّ أخبار القتل والتفجير، والمذابح الجماعية تترك آثاراً نفسية صدمية. إنها تثير مشاعر القلق والخوف وانعدام الأمن والإحساس بالعيش في عالم مليء بالأخطار والتهديدات. وإزاء هذه المشاعر يميل الناس العاديون إلى توسل الدفاع النفسي من خلال آلية التبلد وتجميد المشاعر. وتمكن خطورة التبلد الانفعالي في إمكانية تعميمه من خلال الانكفاء إلى الذاتي. وإذا أضفنا إلى الأخبار مقدار نسبة أفلام العنف المتعاظمة التي تعرض على الشاشة، يتضح مقدار تراكم الإثارة الذي قد يقود إلى السلوك العنيف[2].

والجماهير، بعد تزييف وعيها، تصبح كائناً انفعالياً غير منطقي يميل إلى التحيز على أساس عاطفي وحماسي، من حيث إن الجمهور سريع التأثر، سريع التصديق، يعوزه الحس النقدي. وعواطف الجمهور بسيطة جداً وشديدة التأجج. وعليه، لا يعرف الجمهور لا شكاً ولا تردداً[3]، ويميل إلى الاندفاع في الاتجاه الذي يحدده له من قاموا بتزييف وعيه، (إذ إن تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا)، وسلوكنا من قبل «ساتشي عقول».

3 – دينامية العلاقة بين الجماهير والسلطة:

حين تكون السلطة شرعية وقائمة على الديمقراطية وحرية الكلمة وملتزمة بها، وحين يكون الجماهير على درجة عالية من التعليم والثقافة ولديها ملكة التفكير النقدي يصبح الأمر علاقة سلطة ناضجة فيسود العقل وتحتل الموضوعية مساحة كبيرة في العلاقة بين السلطة

(1) المرجع نفسه، ص 104 وما بعد.

(2) مصطفى حجازي: حصار الثقافة – المركز الثقافي العربي – بيروت 2000، ص 62.

(3)Freud: Psychologie des foules… Op.Cit P. 133.

والجماهير، فلا تتحول إلى حب حتى التقديس والاستلاب أو إلى كراهية حتى التدمير. ونتاج ذلك منظومة سياسية واجتماعية تتسم بالسلام وزيادة معدلات الإنتاج والنمو[1].

أما حين تكون السلطة غير منطقية، أو غير شرعية أو استبدادية، حينئذٍ تسود ديناميات مرضية مثل الكذب والنفاق والخداع والعدوان واللامبالاة من جانب الجماهير، بينما تتعامل السلطة مع الجماهير بازدراء وشك وتوجس وترى أنها غير جديرة بالتحاور[2].

والجماهير بعد تزييف وعيها تصبح كائناً انفعالياً يميل إلى الاندفاع في الاتجاه الذي يحدّده له من قاموا بتزييف وعيه. وهذا السلوك الجماهيري يستمر على هذا النحو إلى أن تكشف الجماهير أنها قد غرّر بها أو خدعت، وحينئذٍ يتغير مسارها وتنقضّ على من غرروا بها أو خدعوها، وقد يحدث هذا التحول بسبب هزيمة عسكرية أو انهيار اقتصادي أو أزمة سياسية واجتماعية[3]...

4 – الخصائص العامة للجماعات التكفيرية:

العنف هو الصورة الطاغية وسط المشهد الهرمي بعد تنامي الحركات الأصولية التكفيرية. فقيمنا أو عقائدنا وثقافتنا تدعو إلى التعارف والتسامح كما تصنع العنف والإرهاب الذي يتغذّى منه.

لقد تحولت المنطقة العربية إلى بؤرة لممارسة العنف والإرهاب، كما تشهد على ذلك الحروب الأهلية والنزاعات الوحشية. والوقائع صارخة من الجحيم العراقي والسوري إلى الامتثال الدموي اليمني والليبي والمصري واللبناني...

مشكلة الجماعات التكفيرية هو ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة واحتكار الإيمان وامتلاك الحق المطلق، والخلاص الدنيوي من خلال العودة إلى أصول الدين، وتكفير كل من يخالفها الرأي أو العقيدة.. وهكذا فالجماعات التفكيرية على اختلاف مناحيها، قد تنزلق إلى الدخول في صراع مفتوح مع الآخر، ورفض الاعتراف بحقه في الاختلاف والمغايرة – أي فرض لذاتها في حالة رفض للغيرية – مما يفتح السبل أمام احتمالات العنف. هذا ما تبشّر به الجماعات التفكيرية بيقينية – دغمائية.

هذا الفكر التكفيري يقوم على إلغاء ما ينطوي عليه العالم من الاختلاف والتنوع والتعدد. وعندما يهيمن شعار واحد يعمّ القمع والاستبداد ويمارس العنف والإرهاب.

---

(1) غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير – ترجمة هاشم صالح – بيروت – 1991 – دار الساقي.

(2) سالم القموري: سيكولوجية السلطة – «عالم المعرفة» – رقم 324 – الكويت 2006 – المجلس الوطني.

(3) هربرت شيلر: المتلاعبون بالعقول – ترجمة عبد السلام رضوان – «عالم المعرفة» – رقم 234 – الكويت 1999 – المجلس الوطني.

يتعامل أصحاب الفكر التكفيري مع هويتهم الدينية بأقصى الغلو والتطرف والانغلاق، كجهاز ثقافي للشحن والتعبئة والتحريض، أو كخطاب فكري للنبذ والإقصاء، أو كمتراس عقائدي لحماية الذات ونفي الآخر. وقد لاحظ «نيتشه» «أن جميع أولئك الذين لا يرضون عن أنفسهم مستعدون دائماً للانتقام. ونغدو نحن الآخرين من ضحاياهم»[1].

هذا ما يفعله التكفيري الإرهابي الذي يحمّل الناس كلهم، من غير تمييز مسؤولية بؤسه وشقائه أو فشله وإخفاقه، فيتخذ منهم أدوات للدفاع عن قضاياه.

إن التميز بين العقيدة المغلقة قد أنتج نماذج فكرية تهيمن على الساحة الثقافية من «الدعاة والأوصياء» الذين يقولبون العقول بتعاليمهم المشحونة بالإقصاء والنبذ، لكي ينتجوا «المجاهد» التكفيري الذي يتوهم أنه يجاهد لإنقاذ الأمة والناس من الفساد والضلال. هذا التضليل قد حوّل الحالة الدينية، أو كما يدعّون «الصحوة الإسلامية» إلى تجربة ظلامية أو إلى ثقافة للقتل والتدمير.

1 – **البنية الذهنية:**

أ– **المكوّن المعرفي:** إن الثقافة، بما هي الإطار الفكري الجامع، تتجاوز في الحالة الأصولية (كمعتقدات موجهة لسلوك الجماعة) كي ترتفع إلى مرتبة العقيدة الصريحة التي تمثل مشروعاً وجودياً وسياسياً. يتم الانتقال عندها إلى حالة اليقين المطلق المتسم بالحق واحتكاره، في نظر من يعتنق هذه العقيدة، وذلك على نقيض عقيدة الآخر التي تتسم بالضلال. وبالتالي يتعين محاربته.

تتمثل مرتكزات الأصولية في العودة إلى أصول الدين، أولوية الإيمان على العقل، والتمسك بالمرجعية النقية، والتمسك بسلوك متشدد مع الذات يصل حد التزمت في التعاليم والشعائر وتطبيقها[2].

ب– **المكوّن الانفعالي:** تقوم الأصولية على بنية اجتماعية تتمثل في العصبية، وما تدعو إليه وتتمسك به من وحدة العقيدة وأحاديتها تتغذى على التعصب كموقف سيكولوجي طالما أن هناك نفيا لإمكانية العقيدة المخالفة.

التعصب هو حاجة نفسية قوية لترسيخ الانتماء وإبراز قوته وتماسكه وشد أعضاء الجماعة إليه. ويبلغ التعصب أقصاه حين يكون تعصباً لعقيدة متجسدة في جماعة. في هذه الحالة يصبح التعصب مزدوجاً: للعقيدة وللوجود الموضوعي للجماعة ومصالحها. فالتعصب هو تعصب للوحدة الداخلية، بقدر ما هو تعصب لتمايز الجماعة عن الخارج

(1)Nietzsche: le gai savoir – éd. 10/18 – Paris 1957, P. 191.

(2) عبد الرحمن معلا: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة – بيروت 1999 – مؤسسة الرسالة – ص 48.

وإلغاء اللقاء ما بين «النحن» والآخر. العلاقة مع الخارج تصبح علاقة «نحن» في مقابل رموز وأساطير مجسّدة للشر[1].

هنا يحدث انشطار للعواطف بشكل قطعي ما بين إيجابي طيب، وسلبي خبيث، وتستقطب العصبية كل العواطف الإيجابية بينما تُسقط على الخارج كل المشاعر والانفعالات السلبية.

يوظف الحب كله في الجماعة فتكتسب معه دلالة المثل الأعلى، الخير المطلق، بينما يوظف العدوان كله على الخارج، مما يحوله إلى أسطورة الشر، الذي يتوجب محاربته بل إزالته.

تتوسل الجماعة الأصولية التكفيرية عدة أواليات لتعزيز هذا التماسك الداخلي، وذوبان الأعضاء في كيانها: منها التبسيط الفكري للعقيدة التي تدرك بفعل إيماني بدون تحليل أو نقاش، هذا التبسيط الإدراكي يشحن عاطفياً من خلال الرصد الإيماني. ولهذا السبب يرفع شعار المستند إلى مشروعية إلهية، ومع هذا الشعار لا مجال للنقد أو التساؤل حيث يعتبر ذلك تشكيكاً يرقى إلى مستوى الضلال[2].

ومنها أيضاً إطلاق آلية «التبعية». ولا تكتفي هذه الآية بالارتكاز إلى مثل أعلى إيماني، بل هي تعزّزه بذلك الميل النفسي إلى الانقياد. وهي حالة تنطلق حين يتصعّد الشعور بالتهديد وانعدام الطمأنينة، مع فقدان القدرة على المجابهة. وأكثر حالات التبعية فاعلية تلك التي تتخذ طابع الانقياد لسلطة مرجعية «كاريزمية» تشكل نواة الجذب لأعضاء الجماعة.

فالمرجعية (القائد أو الزعيم) الموهوب يجسد المثل الأعلى للجماعة في نفس الوقت الذي يصبح معلمها ومرشدها من خلال تمثله العميق للعقيدة التي تعبّر عن أعمق دوافعها وأكبر طموحاتها. هنا تكون علاقة الجماعة معه علاقة تبعية كاتكال شبه طبيعي (من حيث إنه يمثل الأب الرمزي)، حيث توكل إليه تدبير أمرها وتسلمه زمام مصيرها[3].

ج – **المكوّن السلوكي:** في الحالة الأصولية، العنف يشكل الوجه الآخر لثقافة تسهم في إنتاجها سمتها أنها أحادية متحجّرة، تكفيرية عدوانية، كما تعمّم نماذجها في دور العبادة والمؤسسات الدينية أو عبر الشاشات والقنوات الفضائية. إنها ثقافة ذات مرتكزات أساسية.

– المعتقد الاصطفائي الذي بموجبه يتصور أصحابه وأتباعه أنهم ملاّك الحقيقة وحراس

(1) علي وطفة: التعصب «انتشاره في الوطن العربي» – «عالم الفكر: - عدد 3 – الكويت 2002- المجلس الوطني – ص 30.

(2) عماد الدين شاهين: التطرف والاعتدال لدى الحركات الإسلامية – الإمارات 2002 – مركز الدراسات – ص 20.

(3) عبد الإله بالقزيز: الإسلام والسياسة – بيروت 2000 – المركز الثقافي العربي – ص. 150.

الإيمان وحدهم دون سواهم.

- إنها ثقافة الرفض والإقصاء وعدم الاعتراف، وذلك بالتعامل مع الآخر المختلف بوصفه ضالاً أو كافراً مرتداً.
- أمراء هذه الثقافة يتوسلون العنف والإرهاب، قتلاً وتصفية، وذلك تحت دعوة مزيفة مشبوهة هي «إنقاذ الأمة» من الضلال[1].

إن التلاعب بالعقول الذي يمارسه الإرهاب الداخلي، و«الابتزاز» هو من أبرز مقومات تراكم المأزق الداخلي. بمعنى أن الخلاف بين (الإخوة) الذين يشفقون على بعضهم أو على بعضهم البعض هو الأكثر حدّة وإرهاباً، كما تشهد الحروب الداخلية بين «داعش» و«جبهة النصر» أو «قسد» وغيرها...

وهكذا، فالجماعات التكفيرية الإرهابية تمارس عقيدتها بعقلية «السفّاح» لأن صورة الطغاة لا تزال تستوطن عقولهم وتعشش في الذاكرة بقدر ما تتحكم في المخيلة والتصرف والمسلك، ما دام الوعي يلامسه اللاوعي، والعقل يتغذى من أوهامه وأساطيره. فالإرهاب يسكن المخيلة ويتغلغل في العقول والأفكار والنفوس.

2 – إنّ ظاهرة القتل الوحشي، وقطع الرؤوس، الذي تمارسها الجماعات التكفيرية، تمثل حالة عصابية سيكوباتية معادية للإنسان والمجتمع وجدت بالدين غطاء ومبررا لممارستها الإجرامية، ومنحها القدرة على إعطاء جرائمها صفة الشرعية.

إن الحركات التكفيرية شكلت مشاريع للقتل المنهجي بمنطق أصولي عنصري، ديني. هذه الجماعات تشرّع القتل وتمجّده باسم الدين والمقدس، ذلك أن ذاكرتها مشحونة بالهواجس والمشاعر الدموية. ولذا فهي تقتل وتدمّر من أجل القتل والدمار، مما يعني أن وحش العنف يسكن داخلها. ولعلّ مصدر العنف هو ما تتمسك به من المنطلقات أو المرجعيات، أو العقليات المغلقة. بهذا المعنى يكمن العنف في بنية الثقافة[2].

فالإرهاب التكفيري هو نتاج الثقافة الدينية التي ترسّخت في عقول الناس، بقدر ما هو ترجمة للتمييز والمفاضلات الاصطفائية أو تجسيد للتصنيفات الاستئصالية التي تتعامل مع الأنا والآخر كضدّين متنافيين، يتربع أحدهما في ملكوت الحق والخير والإيمان، لكي يرمي الآخر إلى دائرة الشر والكفر. هذه الظاهرة المتفشية هي نتيجة البيئة الثقافية الدينية الرائجة بتعاليمها ومرجعياتها ورموزها أو بخطاباتها وأحكامها.

هذه هي الرسالة التي يريد التكفيريون إبلاغها: التعامل مع الناس بلغة التهديد والوعيد،

(1) فواز جرجس: الحركات الإسلامية – الإمارات 2002 – مركز الإمارات للدراسات – ص 87.

(2) علي حرب: أزمنة الحداثة الفائقة – بيروت 2008 – المركز الثقافي العربي – ص 88.

لكي ينصاعوا إلى أوامرهم، وأن يكونوا مجرد أفراد قاصرين، لكي يدخلوا السجن العقائدي وينضموا إلى القطيع البشري، وينفذوا بصورة آلية ما يملي عليهم من الفتاوى والأحكام[1].

وفي وسط هذا القطيع يشعر الفرد بالأمان لأنه الآن جزء من كيان ضخم يصعب عقابه أو مساءلته، ويتمركز الشخص حول هذا الكيان أكثر من تمركزه حول ذاته، ويضعف التزامه بالقيود السياسية أو الاجتماعية أو الأخلاقية، ويتماهى مع الجماعة، فتتحرك الجماعة بمشاعر الحرمان أو الرغبة...

يقول **نيتشه:** «لقد وجد في كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوهين، فهم يكرهون إلى حد الهوس كل من يطلب المعرفة... إنهم يلتفتون دائماً إلى الوراء... فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه إلى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل مسلك فيهم خطيئة، وما فات مداركي ذلك الإيمان الذي يدعون رسوخه فيهم. فإنهم لا يؤمنون بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدي العالم»[2].

يتبدى تشخيص المرض بكشف الحقيقة الفعلية للقيم التي أوجدها أوصياء الفكر التكفيري. فهي مجرد مسبقات وأحكام مغلوطة اعتقدوا في صحتها ونصبّوها كحقائق و«أصنام مطلقة»[3].

ويمكننا أن نتساءل ما مصدر هذا المرض؟

إن الفكر التكفيري محكوم بموقفه الإيديولوجي، وبترسبات لا واعية، الأمر الذي يجعله يتعاطى مع الأحداث والقضايا بنظرة أحادية، وعدم الاعتراف بالآخر. ويبلغ الفكر التكفيري أقصاه في النزعة النرجسية التي تزّين لجماعة دينية معينة، بأنها الأحق والأفضل من حيث معتقدها.

من هنا فإن الفكر الأحادي التكفيري يقيم فصلاً حاسماً بين البشر: مؤمنين وكفرة، بقدر ما يتعامى عما يسم الواقع من التعدد والتنوع.

وذلك يحمل على إعادة النظر في إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، بحيث نقرأ قراءة تتجاوز الثنائيات الضدية والعقليات الاصطفائية.

وقد اختار نيتشه صوت «زرادشت» الذي يعلم البشر «إرادة جديدة تحرر من الطريق الذي سلكوه حتى اليوم»[4].

---

(1) المرجع نفسه: ص 90.

(2) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت – ترجمة فليكس فارس – بيروت، دون تاريخ، دار القلم – ص 56.

(3) نيتشه: ما وراء الخير والشر – ترجمة جيزيلا حجار – بيروت 1995 – غروب في – ص 22.

(4) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت – مرجع سابق – ص 42.

أول تجل لهذا هو الهدم والرفض لتراث قائم على تصنيفات رسّخت بفعل ثنائياتها حول المؤمن والكافر، مفاهيم عن الطاعة، لكن قبل ذلك «يجب علينا سحق ما تبقى من الأخلاق الوضيعة داخلنا لنحاول العبور»[1].

لذلك، كانت مهمة النقد هي تحرير الفكر نفسه من هيمنة الثنائيات في تقييم السلوك البشري[2]. فالنقد مجرد سلاح لقوة الحياة داخلنا. إذ لا شيء في ممارسة فكرنا النقدي يرجع إلى الصدفة، بل هو في غالب الأحوال دليل على أن القوى الحية داخلنا تعمل دائماً لكي تكسر القشور والمظاهر الخارجية[3].

ما نحتاج إليه اليوم هو «مصباح ديوجين» لنرفعه فوق عيوننا، ونستهدي به، ونحن نتجول في وضح النهار، نجوب به دهاليز وشوارع الضياء، الذي ليس هو «النور»، بل هو حاجب النور.

حكيم العصر ليس لديه من أوهام الماضي، ما يعد به من نعيم الفردوس المفقود.

إنه يريد أن يتجاوز أجيالاً من الدعاة الكبار الموجهين لتاريخ الأفكار والعقائد، وللأوصياء الذين يندبون أنفسهم على الناس وعلى تفكيرهم.

حكيم العصر ليس هو العالم تماماً، ولا الواعظ الديني، وليس مخترع أجوبة بقدر ما هو المعارض المزمن للأجوبة، فهو لا يكف عن البحث والتنقيب. فالتزام الحكيم هو أنه أمسى السالك على دروب الحقيقة، وليس المالك لها. فقيمة الحكمة أنها تنير الطريق أمام صاحبها أو المتلقي لها[4].

إنّ حكيم العصر مضطر دائماً أن يوقد مصباح ديوجين مجدداً محاولاً أن يُنير به ظلام الظهيرة مرة بعد مرة. لذلك تبقى المهمة الأولى للحكمة اليوم هي البحث عن الحقيقة دائماً. لكنها في الزمن العولمي أصبح لهذا البحث عن الحقيقة حق إنساني، إنه حق الفهم.

إذا كان جوهر الاجتماع الإنساني يقوم على التواصل فإنه يجيء من سجل آخر مغاير. فالتواصل هو جدلية الهوية والاختلاف الفاتحة على الهوى المشترك بين المختلفين. هذا الهوى الذي لا يمكن مد الجسور إليه إلاّ عبر الحواري الذي يقدم مادة أولية لبناء نسق معقولي مشترك.

---

(1) نيتشه: ما وراء الخير والشر – مرجع سابق – ص 58.

(2) المرجع نفسه: ص 82.

(3)Nietzsche: le gai-savoir – Op.Cit. – P. 297.

(4) مطاع صفدي: «لقاء سقراط في عتبة الألفية الثالثة» – مجلة الفكر العربي المعاصر – عدد رقم 123-122، بيروت 2002 – مركز الإنماء القومي – ص 50.

التمرس بلغة الحوار يؤدي إلى الاعتراف بالآخر والقبول به بوصفه مختلفاً عنا ومساوياً لنا في آن فالحوار بين المتكلمين يشكل بيئة التواصل المجتمعي بقدر ما يخلق مساحة المكن مما هو مفهوم ومعقول، حيث تتوسط بين الناس الحجج والأدلة لكي تخفف من مسائل الإكراه والعنف[1].

وهكذا فما دمنا نتواصل ونتحاور ونتفاعل، ثمة إمكان لأن نتغيّر ونغيّر، عبر تحويل المفاهيم، ولا يتم تغيير من دون الانخراط في علاقة مع الآخر.

فلا أحد يملك الحق الأخلاقي في أن يكون وصيّاً على الآخر، وفي فرض الحل الذي يجده مناسباً لمصالحه الخاصة.

إن الفرد لا يبلغ الإنسان الكامن فيه إلاّ بقدر ما يتشغل على ذاته بتفكيك ما يأسرها من قوالب التنميط المنقولة لأقواله وأفعاله. مثل هذا العمل يحرر الوعي من المطلقات الدغمائية والإيديولوجيات الشمولية، بقدر ما يفتح مفهوم الحقيقة على ما هو معيش ومحايث.

ولذا، فإنه من الضروري أن يبحث الإنسان عن إخلاص داخل ذاته لإخراجها. ولا يكون ذلك إلا بتدمير العبد الذي بداخله عبر تجاوزه.

المراجع العربية:

1. بالقزيز، عبد الإله: الإسلام والسياسة، بيروت 2000، المركز الثقافي العربي.
2. جرجس، فواز: الحركات الإسلامية، الإمارات 2002، مركز الإمارات للدراسات.
3. حرب، علي: الحداثة الفائقة – بيروت 2008، المركز الثقافي العربي.
4. حرب، علي: العالم ومأزقه – بيروت 2002، المركز الثقافي العربي.
5. حجازي، مصطفى: حصار الثقافة – بيروت 2000، المركز الثقافي العربي.
6. شاهين، عماد الدين: التطرف والاعتدال لدى الحركات الإسلامية، الإمارات 2002- مركز الدراسات.
7. لوبون، غوستاف: سيكولوجية الجماهير – ترجمة هاشم صالح – بيروت 1991، دار الساقي.
8. معلا، عبدالرحمن: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، بيروت 1999، مؤسسة الرسالة.
9. نيتشه، فردريك: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس مارس – بيروت، دون تاريخ، دار القلم.
10. نيتشه: ما وراء الخير والشر – ترجمة جيزيلا حجار – بيروت 1995 – غروب في.

المجلات:

1. شيلر، هربرت: المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان – «عالم المعرفة»، رقم 2106، الكويت 1986 – المجلس الوطني.

(1) المرجع نفسه: ص 17.

2. صفدي، مطاع: لقاء سقراط في عتبة الألفية الثالثة – «الفكر العربي المعاصر»، عدد 122، 123، بيروت 2002، مركز الإنماء القومي.
3. قموري، سالم: سيكولوجية السلطة، «عالم المعرفة»، رقم 324، الكويت 2000، المجلس الوطني.
4. وطفة، علي: التعصب، «انتشاره في الوطن ا لعربي»، «عالم الفكر»، عدد 3 – الكويت 2000، المجلس الوطني.

المراجع الأجنبية:

1. Freud : considérations actuelles sur la guerre et sur la mortm in : Essais de psychanalyse – éd. Payot – Paris 1981.
2. Freuf : Psychologie des foules et analyse du moi – in : Essais de Psychanalyse – Op.Cit.
3. Kaes, R. : l'idéologie. Etudes psychanalystiques – éd – Demoel – Paris 1980.
4. Nistzshe, F. : le gai savoir – éd – 10/18, Paris 1957.

مراجع عامة:

1. بورديار، جان: ذهنية الإرهاب – ترجمة بسام حجار – بيروت 2002 ، المركز الثقافي.
2. رشوان، حسين: الإرهاب والتطرف – الإسكندرية 2002 – مؤسسة شباب.
3. الفريدان، عادل: السلفية والجماعات الإسلامية – القاهرة 2010 – الدار الأثرية.
4. فرويد، سيغموند: علم نفس الجماهير – ترجمة جورج طرابيشي – بيروت 2006 – دار الطليعة.
5. فرويد: أفكار الأزمنة الحرب والموت – ترجمة جورج طرابيشي – بيروت 1981 – دار الطليعة.
6. مليكة، لويس كامل: سيكولوجية الجماعات والقيادة – القاهرة 1989 – جزءان – الهيئة المصرية.
7. نصّار، ناصيف: أضواء على التعصب – بيروت 1992 – أمواج.